العرب
السبت 2020/01/11
السنة 42 العدد 11583

«لمن تقرع الأجراس»..
ترنيمة همنغواي الأبدية وسؤاله المعلّق في الفراغ

لا أحد يخرج فائزا من الحرب الآثمة وأجوائها المعفّرة بالرصاص

يمكن للحرب أن تدمّر كل شيء إلا الحب الذي يتحدى سوداوية المشهد، ويتجاوز الموت نحو الخلود، وهو ما تجسده العلاقة التي جمعت بين بطلي رواية وفيلم لمن تقرع الأجراس، لإرنست همنغواي، وهو عنوان اقتبسه من أحد أشعار الإنجليزي جون دون "إن موت أي رجل يؤلمني لأنني أنتمي إلى البشرية جمعاء. لذا، لا تراسلني أبدا لتسألني لمن تقرع الأجراس؛ إنها تُقرع من أجلك".

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

لم يعرف التاريخ الحديث رجلا يشبه رواياته، إلى حد التماهي، أكثر من الأميركي إرنست همنغواي (1899 ـ 1961). يمكن الجزم بأن حياة هذا الكاتب الحائز على جائزة نوبل عام 1954، والذي أهدى له أبوه، صغيرا، بندقية صيد، اصطاد بها نفسه في ما بعد، تصلح لأن تكون أكثر إدهاشا من جميع كتاباته.

هل سار إرنست، على خطى أبيه الذي مات منتحرا، وكذلك فعلت أختاه غير الشقيقتين أورسولا وليستر، ثم حفيدته مارغاوك همنغواي، في إشارة إلى مرض وراثي يصيب البنكرياس بسبب الإدمان على الكحول الذي اقترن بشخصه إلى درجة أن كوكتيلا حمل اسمه في كوبا. أم إنه أخلص، حقا، لعنوان كتاب اقتبس منه روايته الشهيرة "لمن تقرع الأجراس"، يقول فيه مؤلفه جون دون، (1624) "لسنا جزرا مستقلة بذاتها، موت أي كائن ينتقص مني، بالضرورة، فأنا معني بالبشرية، ولذا لا تراسلني أبدا لتسألني لمن تقرع الأجراس؛ إنها تقرع من أجلك".

الغرفة 512

من أين تبدأ الحكاية؟ من الغرفة 512 بفندق أمبوس موندوس، في هافانا. وقد تحوّل المكان الواقع في ضاحية تطل على البحر، وكتب فيه همنغواي، روايتي "لمن تقرع الأجراس" و"العجوز والبحر"، إلى متحف بعد أشهر من اندلاع الثورة الكوبية التي قادها فيدل كاسترو، من الحانة التي احتوت تمثاله المترنح المنحني عند "البار"، وقدمت اسمه كمشروب مستوحى من قصب السكر، أو من ذلك البحر الكاريبي، الذي أرست فيه سفينة عام 1928 حيث عاش إرنست، آخر ثلاثة عقود من عمره وكتب أهم أعماله.

"ما أجمل أن يستريح المرء بين قارتين وزوجتين وكتابين"، عبارة قالها همنغواي، هامسا بين الأمواج، مع زوجته الأولى بولين بفيفر. لكن الفضل يعود إلى زوجته الثالثة مارتا غيلهورن، التي عثرت على مزرعة "فيهيا" التي كتب فيها همنغواي كثيرا من أعماله. وكان قد اشتراها بـ18.500 دولار، هي حصته المالية من حقوقه كمؤلف لرواية "لمن تُقرع الأجراس" الصادرة عام 1948.

"لمن تقرع الأجراس" ليست مجرد رواية تحكي عن شاب أميركي (روبرت جوردان) يشارك في الحرب الأهلية الأسبانية في ثلاثينات القرن الماضي، ويعين لتفجير أحد الجسور في إحدى مدن إسبانيا.

وليست بمثابة حوارات ثرثارة، بذيئة ومملة في نظر قرّاء ملولين ومستعجلين. لم تكن الرواية هذيانا مفزعا لرجل سبق له أن خاض الحروب ونجا منها بأعجوبة بل هي وقوف عند فظاعة القتل لأجل القتل، بالطريقة التي توصل بها واهتدى إليها صياد ماهر مثل همنغواي.

الجدوى من هذه الرواية التي تقول بـ"لا جدوى الحرب والسلام" هو ما معنى أن تكون قاتلا أو قتيلا؟ ما فائدة أن تضيع وقتا في الكلام، في حين يمكن للسلاح أن يختصر كل تلك الرواية.

الشاب الأميركي المنضوي تحت إحدى الكتائب الشيوعية، روبرت جوردان، يقع اختياره لتفجير جسر في الحرب الأهلية الإسبانية، أي في قراءة رمزية، عبارة عن نسف الطريق أمام أي إمكانية للحوار والتواصل.

يقابل روبرت، أثناء مهمته فتاة تُدعى ماريا، وكانت واحدة من الأعضاء المنتمين إلى عصابات الحرب؛ وقد التقى بها في المخيم الخاص بتلك الميليشيات، وعلم أنها مواطنة أسبانية، حوّلت الحرب حياتها إلى جحيم.

تشتعل الأحاسيس وتتقد فجأة، أمام صراعات لقيم إنسانية كانت كامنة في النفوس، فأين مهمته من أداء الوظيفة أمام واجبه الإنساني ومشاعره العاطفية التي استيقظت فجأة كأسئلة حارقة.

ما هذه الحرب التي حولت الجميع ضد الجميع؟ ما الغاية منها، من الخاسر ومن الرابح؟ كيف لك أن تخوض حربا لمجرد أنه قيل لك "خض حربا؟"، ما معنى الواجب في أبعاده الأخلاقية والاجتماعية والوجودية؟

يا لبلاهة الإنسان حين لا يستمع للأجراس التي تدق في داخله، وتدعوه لتمجيد نفسه كما قال الفيلسوف المصلح مارتن لوثر كنغ.

إرنست همنغواي، الذي غامر إلى حد طلب الموت، ولم يدركه الموت ولم يرض به الموت قربانا سهلا وفي المتناول، ذهب بالأسئلة نحو أقصاها، فأمسك بالموت من قرنيه مثل ثور إسباني هائج.. لكن هذا الموت تحاشاه، وكأنه أراد أن يردد مقولة "اطلبوا الموت، توهب لكم الحياة".

لمن تقرع الأجراس حقا، لطالبي الموت أو الحياة، أم لقارعيها والمنصتين إليها والملبين لندائها.. لا شيء يُقرع لدى همنغواي غير الأفكار.. وللأفكار طنين لا نسمع صداه إلا في الروايات.

"لمن تقرع الأجراس" رواية قالت كلمتها بحذر وتوجس، ذلك أنها أفصحت عن هويتها من عنوانها، وجاء ذلك على شكل سؤال فلسفي، أراد من خلاله همنغواي، أن يقول إن الأجراس لا تطرب إلا نفسها، ولا تقرع إلا لنفسها كما هو الحال بالنسبة إلى كازيمودو؛ أحدب نوتردام، عاشق إزميرالدا التي يقرع لها الأجراس من أعلى الكاتدرائية، وهو أصمّ في رائعة فيكتور هيغو.

كل ما يتعلق بهمنغواي، وحياته كان حاضرا في "لمن تقرع الأجراس"، من شهوة الانتحار التي قصفت عمر صاحبها، إلى الحب الذي لا تعقبه إلا الخيبات والتوديعات كما جاء في آخر الرواية، وصولا إلى أن "الحياة خطيرة على صاحبها".

الرواية -رغم وجعها الشديد- انتصار للحب، وإدانة للفاشية بجميع أشكالها، ذلك أن بطلها روبرت، يقول لحبيبته ماريا، في تلك الحرب الآثمة، والأجواء المعفرة بالرصاص "أحبك، وحبي لك، يبلغ حبي لكل ما نحارب من أجله، أحبك مثل حبي للحرية والكرامة، وحق جميع الناس في العمل والأمان من الجوع، إني أحبك كما أحب مدريد التي دافعنا عنها، وكما أحببت جميع الرفاق الذين قضوا نحبهم دفاعا عنها".

> رواية لمن تقرع الأجراس لم تكن هذيانا مفزعا لرجل سبق له أن خاض الحروب ونجا منها بأعجوبة، بل هي وقوف عند فظاعة القتل لأجل القتل، بالطريقة التي توصل بها واهتدى إليها صياد ماهر مثل همنغواي

صدق مطلق

الرواية التي تدور أحداثها في أقل من أربعة أيام، حول شاب مكلف بتفجير جسر، ويدرّس اللغة الإسبانية في مدريد، تريد القول إن اللغة جسر، على كل حال، لكنه لا يُنسف أو ينقطع على كل حال. وتاريخ إسبانيا ليس "تاريخ إسبانيا وحدها". إن همنغواي، لا يمزح ولا يتغابى، بدليل ما كتبه الناقد جمعة بوكليب "أراد همنغواي، من ذلك، لفت اهتمام الناس في كل العالم إلى أهمية الحرب الأهلية الإسبانية، وأنها ليست شأنا إسبانيا فقط، بل تهم كل العالم".

ليس سهلا، ولا اعتباطيا، أن يلتقط همنغواي، عنوان روايته "لمن تقرع الأجراس" من ديوان شعر كتبه شاعر اسمه جون دون، في القرن السابع عشر، وكان على شكل صلوات تأملية شخصية يرددها المرء في أمور دنيوية حول الصحة وغيرها، واختار مقطعا وضعه في مقدمة الرواية، يتحدث فيه عن أجراس الجنازات، وهي دقات أجراس كنائسية، متعارف عليها، تُقرع للإعلان عن موت شخص.

ليس سهلا أن يبدأ الكاتب روايته بسؤال "لمن تقرع الأجراس؟".. إنه غاية في الإرباك والإحراج، وخطر على اطمئنان القارئ للرواية والمشاهد للفيلم السينمائي، ذلك أن صاحب "العجوز والبحر"، ضعيف النظر، صياد محترف، وقد استطاع أن يقنع الجيش الأميركي بقيادة سيارة إسعاف.

كل شيء كان مربكا وغريبا في حياة هذا الرجل الذي قنص نفسه ببندقية صيد، وكانت والدته التي حُرمت من البنات تلبسه ملابس طفلة.

وقد قال عنه الكاتب الروسي ميخائيل بيلّر، "لم يعلّمنا همنغواي كيف نفوز، بقدر ما علّمنا تقبّل الهزيمة بشكل جميل". وأضاف الفيلسوف المنتمي إلى الشق السوفييتي، آنذاك، في معرض حديثه عن الأديب الأميركي، "صدق مطلق، بساطة لا حدود لها، ورجولة لا تلين تلك هي الصفات الرئيسية الثلاث التي شكّلت فنّ وأدب همنغواي، والتي رأيناها في الترجمة الرائعة إلى الروسية التي قامت بها مدرسة كاشكين".

وكتب عنه ابن جيله، دينيس دراغونسكي، "همنغواي كاتب رائع، واصل تقاليد تشيخوف الغالية جدا على قلب القارئ السوفييتي، فقصصه قليلة الكلمات، وحواراته قصيرة وغنيّة بمعان مخفيّة تحت النصّ، وجميعها تتصف بتعاطفٍ مرير، بلا دموع، مع أبطالها".

ولا يخفي كتّاب عصره إعجابهم بهذا الرجل الخارق، حتى في قول غريمه السوفييتي رومان سيتشنين، في نطاق تطرقه إلى رواية "العجوز والبحر" منوها ومفتونا "لو كان قد تمكّن من الوصول بالسمكة إلى الشاطئ، لكان ذلك بمثابة تحقّق الحلم الأميركي. غير أنّ الصياد العجوز لم يتمكّن أن يوصل إلى الشاطئ إلّا هيكل السمكة فقط".

كاتب يشبه رواياته حد التماهي

«بابا همنغواي» في السينما

أسالت الرواية التي صدرت عام 1940، وبيع منها أكثر من نصف مليون في غضون أشهر قليلة، لعاب السينمائيين فأخرجها سام وود، سنة 1943 في نسخة هي الأكثر شهرة وتأثيرا، إذ كانت من بطولة كاري كوبر، في دور روبرت مورجان، وانجريد برغمان، في دور ماريا. وقابل همنغواي هذين الممثلين قبل البدء بتصوير الفيلم وتحدث إليهما كما أبدى ارتياحه ورضاءه بعد مشاهدة الفيلم.

الفيلم ركز على ليلة حب ماريا ومورغان أو التحالف ضد الموت، في مشهد تبدو فيه الأرض كلها تتحرك تحتهما والجسر المعدني الذي يمثل الصلة الوحيدة بين القوات المتحاربة. فروبرت جوردن أستاذ أميركي يدرس اللغة الإسبانية وهو مثقف وله ميل حاد كي يقاتل من أجل الجمهوريين وإن كان يجهل العقيدة اليسارية، يصاحب كوبر في عملية نسف الجسر. لإنجاح حرب الجمهوريين حاول المخرج أن يتجاوز شخصية الرواية كما رسمها المؤلف ليجعلها شخصية قوية فهو يظهر مشهدا كبيرا للحب والحرب رغم التزام النص بقضية الجمهوريين الأسبان.

وعن برغمان قال همنغواي بعد أن شاهد الفيلم إنها لعبت بصدق دور ماريا وقد وصفها في رسالة سنة 1945- بأنها "جميلة جدا وصادقة ومتزوجة للأسف من فئران". وفي معرض قول برغمان عن دورها في الفيلم "لقد قرأت الرواية وعرفت كيف أتصرف".

يذكر أن برغمان، قد حازت على أول أوسكار في فيلم "جاسلايت" عام 1944. وكاري كوبر بطل الفيلم اسمه الحقيقي فرانك جيمس كوبر ولد سنة 1901 في هيلينا مونتانا الولايات المتحدة وتوفي سنة 1961، بدأ حياته الفنية عام 1923. وشارك في أفلام عديدة منها فيراكروز مع بيرت لانكستر. وحصل على جائزة الأوسكار عن دوره في فيلم "العريف دورك" كما حصل على الأوسكار الثانية عن فيلم "الظهيرة الساخنة" وعلى جائزة كولدن غلوب لنفس الفيلم عام 1952.

زار كاري كوبر، إرنست همنغواي، في غرفته المعتّمة بعد أن أصيب بمرض خطير جعله يعتزل العالم في قبو الظلام، وذكر ذلك في كتاب "بابا همنغواي".

ويبرز الفيلم كيف تحركت مشاعر جوردن تجاه ماريا، واصطدمت أحاسيسه بالحب مع أداء مهمته الصعبة؛ حيث أنه كان يعلم جيدا مخاوف قائد الحرب الذي يُدعى بابلو من تلك العملية التي كان يريدها أن تتم على أكمل وجه. وكان جوردن في ذلك الوقت لديه رغبة شديدة في التمتع بحياته التي شعر بوجودها مع اشتعال ذلك الحب الجديد؛ لذلك شعر بانطفاء رغبته في الالتزام بالقيام بتلك المهمة السرية التي قد تُخلف الكثير من التداعيات.

ثمة روح سوداوية طغت على الفيلم، وذلك تمثلا لمزاج صاحب الرواية والأجواء التي أراد نقلها. حتى هاجس الانتحار لدى تلك الشخصيات القلقة والمعذبة كان حاضرا بقوة، وذلك في قراءة لفكر همنغواي وتقلباته النفسية.

ويلات الحرب الأهلية الأسبانية التي عايشها الكاتب، نلمسها في أدق التفاصيل التي صورها الفيلم، وتحمل في جدواها، إنذارا للبشرية من النزعات الفاشية، وخطورتها في التأثير على الفرد وإقناعه بصحة الأفكار المتطرفة، وذلك باللعب على المشاعر الوطنية.

كل شيء يبدو حزينا وجميلا في عوالم همنغواي التي نقلها فيلم "لمن تقرع الأجراس"، والذي جاء معفرا بغبار الحرب، لكنه ينتصر للحب كخلاص بشري. ومع ذلك، يأتي الفراق في مشهد يدمي القلب بين ماريا وجوردن.

انتظار الموت - ولا شيء غير الموت - ثيمة تطغى على الرواية عند القراءة، والفيلم أثناء المشاهدة، وذلك ضمن سؤال وجودي يسكن عقل همنغواي، فيلبسه إلى شخصياته التي تتحرك مثل طرائد تتعقبها بنادق الصيد في كل لحظة.

لمن تقرع الأجراس؟ سؤال يصاحب القارئ والمشاهد طيلة تلك المدة الزمنية التي لا تتجاوز أربعة أيام من الأحداث، ويكتشف في النهاية أنها أجراس الفناء، وتخليد الفراغ ضمن "طقس همنغوائي" مرعب.

(ح.م)

الفيلم ركز على ليلة حب ماريا ومورغان أو التحالف ضد الموت